التصوف في تاريخ المغرب

سعيد بنحمادة[1]

تقدم التجربة الصوفية في تاريخ المغرب أنموذجا لترسيخ التفاعل بين الدين والتدين والمجال والمجتمع والسلطة في إنتاج خطاب الكرامة ومؤسساتها وأدوارها. وكلها آليات تعكس انفتاح الوَلاية على الآخَر، حتى "صارت ... كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به محمد ﷺ"[2]. وهو ما دفع أحد الباحثين إلى الجزم بأن التصوف تحول لدى المغاربة إلى ما يشبه "عقيدة رسمية"[3]. وقيل أيضا إن "المغرب الأقصى ... الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ"[4]. وأن في "المغرب صلحاء وفقهاء وعلماء"[5]. لذلك "ليس في بلد إسلامي آخر ما يعادل المغرب الأقصى في عدد الأولياء والعلماء"[6]. مما جعل أحد الدارسين يشدّد على أهمية دور المرابطة الذي قام به المغاربة لحماية الجناح الغربي للعالم الإسلامي؛ ملاحظا أنه إذا كانت المالكية هي الركيزة الأولى لتاريخ المغرب، فإن الرباط والزاوية هما الأساس الثاني[7]. ولذلك تنبه عبد الواحد بن عاشر (ت. 1040هـ/1631م) إلى هذا التفاعل بين مكونات الشخصية الحضارية في تاريخ المغرب، فقال:

فِي عَقْدِ الأَشْعَرِي وَفِقْهِ مَالِك وَطَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكِ[8]

أولا- نماذج من الدراسات والمصادر حول التصوف في تاريخ المغرب: منها:

1- ميشو بلير: مقال عن تاريخ الطرق الصوفية بالمغرب[9]: ينطلق المقال من مسلمات عمومية، تتناسب وسياق البحث الكولونيالي في تاريخ المغرب، ليرصد التطور التاريخي للطرق الصوفية المغربية، مقسّما إياه إلى ثلاث حقب:

- حقبة ما بين أبي القاسم محمد الجنيد (ت. (ت. 297هـ/909م) وأبي الحسن الشاذلي (ت. 656هـ/1258م)؛
- حقبة ما بين الشاذلي وأبي محمد بن سليمان الجزولي (ت. 870هـ/1465م)؛
- حقبة ما بعد الجزولي.

---

[1]- **أستاذ التعليم العالي، متخصص في تاريخ المغرب والأندلس، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مكناس.**

[2]- أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ج11، ص 35، 39.

[3]- عبد الرحيم العلمي، مقدمة تحقيق بغية السالك في أشرف المسالك لأبي عبد الله الساحلي المالقي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، مطبعة إليت، الرباط، 1424هـ/2003م، ج1، ص 12.

[4]- أبو العباس أحمد الخطيب بن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، مطبعة أگدال، الرباط، 1965م.، ص 63.

[5]- عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1414هـ/1993م، ص 73.

[6]- ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977م، ص 54.

[7]- حسين مؤنس، مقدمة تحقيق رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم لأبي بكر عبد الله بن محمد لمالكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951م، ج1، ص 26.

[8]- أبو محمد عبد الواحد بن عاشر، المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، مكتبة القاهرة، القاهرة، دون تاريخ، ص 2.

[9]- Edouard Michaux-Bellaire, "Essai sur L'histoire des confréries marocaines", Hespéris V.1, 2eme trimestre, 1921, pp 141- 159.

ومن بين ما توصل إليه ميشو بلير في هذه الدراسة أن تعدد الطوائف والطرق الصوفية في تاريخ المغرب يعكس "خصوصية القبائل البربرية" التي وجدت فيه مرآة تعكس رغبتها في الاستقلال عن الدولة؛ ففي نظره أن "الرابطة الدينية عاجزة عن بلورة وحدة وطنية، بل تُكَسّر الوحدة السياسية"، مؤكدا أن المخزن/الدولة هو من دفع تلك القبائل لتبني التصوف للغرض المذكور، حتى يحول دون نزوعها إلى الوحدة ضده!

والملاحظ أن هذه الدراسة، وغيرها من أعمال ميشو بلير حول التصوف، غدت مرجعا لكثير من الأبحاث الكولونيالية التي تبنت خلاصاتها قبل أن تتطور إستوغرافيا التصوف اعتمادا على مصادر ودراسات جديدة.

2- الدراسات الأكاديمية المغربية المعاصرة: يتفق أصحابها على أن التصوف في تاريخ المغرب هو بنية متجذرة في المجتمع والدولة والعقليات، ولم يكن تصوفا إشراقيا أو عرفانيا بعيدا عن المعاش اليومي لعموم الناس. ونذكر من تلك الدراسات:

أ- محمد مفتاح: "الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي: مقاربات وظيفية": تعتبر هذه الأطروحة من أوائل الأطاريح المغربية التي تقدم إشكالية تركيبية لظاهرة التصوف والمجتمع والسلطة في تاريخ المغرب، تصدى من خلالها مؤلفها لمجموع النظريات السائدة في القرن 19م وبداية القرن 20م، التي فسرت الصلاح بمرجعيات تلك المرحلة، مستعرضا في الوقت ذاته المقاربات التي ظهرت بعد ذلك بمنظور تركيبي، خلص بموجبه إلى أن التصوف ظاهرة "مجتمعية غير جامدة، بل متأثرة بالزمان والمكان والفعل الإنساني"[1].

ب- محمد القبلي: "المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية العصر الوسيط": تحاول هذه الدراسة تحليل المنعطفات الحضارية التي عرفها المغرب بين القرنين 7 و10هـ/13 و16م، والمتجسدة في التفكك الذي عرفته المنطقة بعد سقوط دولة الموحدين (668هـ/1269م) وظهور حركة الشرفاء (الشرفاء الجدد/السعديون، في مقابل الشرفاء التقليديين/الأدارسة) التي مهدت في النهاية لقيام الدولة السعدية، وهو ما دفع الباحث إلى دراسة المشروع السياسي والديني للمغرب المريني، من حيث علاقة السلطة والمجتمع بالتصوف؛ ففي نظره أن النسق المجتمعي وقتئذ قام على ثلاثة ركائز: الأمراء (السلاطين المرينيون)، والشرفاء، والأولياء. وأن هذه المكونات كانت متفاعلة من حيث المرجعيات والأدوار، وهو ما أفرز شبكة من النظم والمؤسسات أطرت الأحداث في تلك المرحلة[2].

ج- عبد اللطيف الشاذلي: "التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري" اهتدى الباحث إلى أن التصوف ضرورة اجتماعية تركت طوال مسارها التاريخي تجليات تعبّر عن وجودها في المجتمع والحُكُم، ويترجم نشاطها وممارستها. وبذلك فهذه الظاهرة الدينية تمثل أحد جوانب النظام الاجتماعي والثقافي، مما حدا بالباحث إلى تتبُّع توزيع الزوايا والرباطات وخصائصها وأدوارها، فخلص إلى أن "التصوف ظاهرة

---

[1]- محمد مفتاح، الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي: مقاربات وظيفية، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م، صص 8- 11. صص 400- 405.

[2] -Mohamed Kably, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-âge (XIème- XVème siècle), Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, pp 243- 319.

إنسانية أفرزها مجتمع متأزم خائف يواجه بها الخوف من الطبيعة والإنسان عن طريق خلق علاقات تضامنية تعاونية متمثلة في الطوائف"[1]. وإن كان أن التصوف، باعتباره بنية ذهنية، هو أعمق من الأزمة؛ فالأزمة ظرفية والتصوف مستدام، فكيف نُفسِّر البنيويَّ بالظرفي؟!

3- مصادر صوفية مغربية مختصة: ومن بينها:

أ- ابن الزيات التادلي (ت. بعد 627هـ/1229م): "التشوف إلى رجال التصوف": أُلِّفَ الكتاب سنة 617هـ/1220م، ولذلك يركز ابن الزيات على متصوفة الفترة المرابطية والموحدية بمراكش وأحوازها؛ فهو أقدم مصدر للتاريخ الديني بالمغرب، تتضح من خلاله تراجمه -البالغة 227 ترجمة- معالم المدرسة الصوفية المغربية فيما بين القرنين 5 و7هـ/11 و13م، حيث تداخل الصلاح والفقه والزهد والورع في تحديد مجالات التصوف ووظائف الأولياء وعلاقتهم بالطبيعة والمجتمع والدولة والعقليات[2].

ب- عبد الحق البادسي (ت. بعد 722هـ/1322م): "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف": صُنِّفَ سنة 711هـ/1311م، ويركز على متصوف منطقة الريف الممتدة، حسب المؤلف، بين سبتة وتلمسان، وقسمه البادسي إلى قسمين: نظري ذكر فيه مرجعيات التصوف ومفاهيمه، والقسم الثاني تعقّب فيه تراجم صوفية (وعددها 48 ترجمة)، استقى بعض معلوماتها من الروايات الشفهية. وتتمثل قيمة الكتاب في ملامح الخريطة الصوفية شمال المغرب، وعلاقة أولئك الأولياء بالقبائل وممثلي الدولة، وحركة التجارة والجهاد البحري بغرب البحر الأبيض المتوسط وقتئذ[3].

ج- أحمد زروق (ت. 899هـ/1493م): "قواعد التصوف" و"عدة المريد الصادق": يتشابه مضمونا الكتابين من حيث الجمع بين اعتبار التصوف جزءا من الشريعة، فهو أحد طرق الحقيقة وذم البدعة؛ لأن الوَلاية الصوفية تعتمد الفقهَ في بنائها وأدائها. ولذلك يبين زروق المؤلفات التي يجب أن تُدْرس، والمجاهدات والأحوال والمقامات التي يمر منها الولي، وطرق التربية الصوفية، ومنها الطرق المغربية. كما يوضح حقيقة البدعة وأحكامها وخصائصها، والمبتدعة من المشايخ والطوائف، بغاية ترسيخ الاتجاه السني للتصوف المغربي[4].

ثانيا- تحولات التصوف في تاريخ المغرب: يستند التصوف في تاريخ المغرب إلى كون الوَلاية من الموالاة لله، وأساسها الاستقامة والتوبة؛ فإذا كانت المعجزة هي خرق للعادة على سبيل تحدي النبي للمكذبين بمعجزته،

---

[1]- عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري، مطابع سلا، سلا، ط1، 1989م، صص 5- 8. ص 315، 316.

[2]- أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م، صص 5- 26.

[3]- البادسي، المقصد الشريف، صص 5- 11. سعيد بنحمادة، "منهجية عبد الحق البادسي في التأريخ للحياة العلمية بالريف خلال القرنين 7 و8هـ/13 و14م"، ضمن الكتاب الجماعي: الحركة العلمية بالريف: أصولها وامتدادها، شركة الواحة للطباعة، الناظور، ط1، 2016م، صص 201- 261.

[4]- أبو العباس أحمد بن أحمد زروق الفاسي البرنسي، قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1429هـ/2005م، صص 5- 16. نفسه، عدة المريد الصادق، تحقيق الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م، صص 5- 26.

فإن الكرامة هي الأخرى خرق للعادة ولكن على سبيل تصديق الولي للنبي، ولذلك يردد المتصوفة أن الأولياء ورثة الأنبياء[1].

وإذا كان الخطاب الصوفي في تاريخ المغرب يركز على الجهد الفردي في تحقق التصوف وحصول الكرامة، والارتقاء في المعراج الصوفي من مرتبة "المريد" إلى "الغَوْث" و"القطب"؛ فإن التنظيمات الصوفية استندت إلى البُعْد المؤسساتي، حيث ننتقل من الصلاح والزهد (إلى حدود القرن 5 و6هـ/11 و12م) إلى ظهور الطوائف الصوفية (ما بين القرنين 7 و9هـ/13 و15م)، وتعدد الزوايا (منذ القرن 10هـ/16م). وهو تحول في مفهوم التصوف وأدواره؛ إذ تطورت الممارسات والمؤسسات الصوفية المغربية لتفرز العديد من الطوائف، التي تكاملت وظائفها الاجتماعية والدينية والثقافية، كطائفة الشعيبيين (طائفة أبي شعيب آزمور)، والصنهاجيين (من طائفة بني أمغار)، والماجريين (طائفة أبي محمد صالح، ومنهم الدكاليون)، والحُجَّاج (ولا يدخل ضمنهم إلا من حجَّ بيت الله الحرام)، والحاحيين (طائفة أبي زكرياء يحيى الحاحي)، والغماتيين (طائفة أبي زيد عبد الرحمن الهزميري)[2].

ومن ثم يمكن اعتماد معيارِ السند الصوفي في تحقيب تاريخ التصوف المغربي، الذي نسب إلى الجنيد فسمي لذلك بالتصوف الجنيدي، والذي مر من المراحل التي ذكرناها سابقا، أي من الجنيد إلى الشاذلي؛ ومن الشاذلي إلى الجزولي؛ ثم مرحلة ما بعد الجزولي[3].

كما قام التصوف الجنيدي في تاريخ المغرب على مؤسسات صوفية، أهمها الرباط، والزاوية، والطائفة، والتي اختلفت معانيها حسب ما قامت به من أدوار سياسية وأمنية وحربية واجتماعية ودينية، وتباين السياقات الزمنية والمجالية لذلك[4].

ثالثا- المعالم الكبرى للتصوف في تاريخ المغرب: خضع تطور التصوف المغربي إلى العوامل الجغرافية، والتحولات التاريخية العامة سياسيا وعسكرا وثقافيا، مما جعل كرامات الأولياء والزوايا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمجالات؛ فالمقارنة بين وظائف الكرامة في كتاب "التشوف" لابن الزيات التادلي وتلك التي في كتاب "المقصد الشريف" للبادسي -مثلا- تساعدنا على فهم هذا التنوع والاختلاف والتكامل الوظيفي للأبعاد التعبدية لدى الصلحاء، وإدراك تعدد مظاهر المجال الحيوي للأولياء، وكيف عملت ظروف كل مرحلة على تكييف الخطاب والممارسة الصوفيين حسب حاجات المجتمع والدولة في تاريخ المغرب[5]:

- **كرامات كتاب "التشوف" للبادسي**: فرضت طبيعة حوز مراكش وما يجاورها من المناطق التي أرخ ابن الزيات لصلحائها نوعا من الأدوار الاجتماعية للمتصوفة، على رأسها مهمة استسقاء الأولياء للناس في الجفاف والقحوط، والإطعام زمن المجاعات، والتصدق على الفقراء. ولنا في حالة الولي أبي العباس أحمد

---

[1]- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي اللخمي، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1417هـ/1997م، ج1، ص 544.

[2]- ابن قنفذ، أنس الفقير، صص 63- 66.

[3]- الشاذلي، التصوف والمجتمع، صص 106- 108.

[4]- مفتاح، الخطاب الصوفي، صص 40- 57. صص 168- 220.

[5]- سعيد بنحمادة، الماء والإنسان: حفريات في الطبيعة والثقافة بالأندلس، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2024م، صص 424- 482.

بن جعفر السبتي (ت. 601هـ/1204م) ما يؤكد ذلك؛ إذ كان مذهبه -في إيثار الصدقة والتشجيع عليها- أن "الوجود ينفعل بالوجود"، أي أن مدار التدين يقوم بالأساس على التصدق بالطعام (ترسيخ قيم التضامن الاجتماعي)[1].

- **كرامات "المقصد الشريف" للبادسي**: يعتبر شمال المغرب منطقة جبلية يقل فيها الجفاف، لكن شواطئها عرفت ضغطا مسيحيا وغارات القبائل الهلالية، وهو ما جعل كرامات فك الأسرى والحرب وتدخّل المتصوفة لدى رجال السلطة لفائدة السكان، تحضر بقوة عند البادسي على حساب غيرها من الكرامات التي فعّلتها الربط والزوايا المنتشرة على طول الساحل المتوسطي، الذي شكل مجالا حيويا لمتصوفة بلاد الريف وقتها[2].

وهكذا يحيلنا اختلاف هذه الأدوار على الوظائف التي قامت بها تلك المؤسسات الصوفية في تاريخ المغرب، نذكر منها:

1- الأدوار السياسية: يتفق الباحثون على الوظيفة السياسية للأولياء في تاريخ المغرب، لارتباط التصوف باستتباب فكرة الدولة وسيادتها في تاريخ المغرب، وهو ما تنبه له السلاطين فبادر بعضهم إلى تقريب المتصوفة والزوايا[3]، كدأب السلطان يعقوب المنصور الموحدي (580- 595هـ/1184- 1198م) الذي كان له حرص على البحث عن الأولياء وتقريبهم والتماس الدعاء منهم والتبرك بهم، ولذلك انتشر في أيامه الصلحاء وذاع صيتهم[4]. كما أن المتصوفة قاموا بدور هام في قيام دولة السعديين في القرن 10هـ/16م انطلاقا من منطقة سوس، اعتبارا لمكانتهم الاجتماعية ورأسمالهم الرمزي، كبركات بن محمد التدسي (ت. 917هـ/1511م)، ومحمد بن المبارك الأقاوي (ت. 924هـ/1518م)، بعدما فشل الوطاسيون في ضبط السيادة على المغرب وتوحيد أرجائه، إلى درجة أن ابن المبارك نجح في المصالحة بين قبائل الأطلس الصغير، فتم الاتفاق بينهم على هدنة سميت بـ"أيام ابن المبارك"[5].

وإذا كان لهذه الميول الصوفية التي أبداها السلاطين من معنى، فإنها تدل -في المقابل- على نفوذ المتصوفة باعتبارهم "قوة روحية" مؤثرة أسهمت في تنظيم العلاقة بين الولي والسلطان؛ ذلك بأن الأولياء يريدون إثبات اندماجهم في المجتمع ودعمهم للدولة. أما السلاطين فإنهم يبحثون عن شرعية الحكم، وترسيخ التقائية السلطة السياسية بالسلطة الدينية والروحية.

---

[1]- ابن الزيات، التشوف، صص 451- 477. وأبو العباس السبتي هو أحد رجالات مراكش السبعة وتسميه العامة "سيدي بلعباس"، وإليه تنسب القاعدة الشعبية المأثورة: "العَبَّاسِيَّة"، و"خُبْزَة ابن عباس"، التي يفهم منها الحث على التصدق والتقاسُم مع الآخرين إلى حد الإيثار.

[2]- البادسي، المقصد الشريف، صص 50- 151.

[3]- محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1997م، صص 21- 40. صص 85- 101.

[4]- عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1368هـ/1949م، ص 278، 286.

[5]- الشاذلي، التصوف والمجتمع، ص 273.

2- الأدوار الدينية: استندت أهمية الوظائف الدينية للتصوف المغربي إلى ترسيخ مفهوم الاعتدال والوسطية في التدين الاعتقاد وفق الإسلام السني؛ إذ ظل الارتباط بين التصوف والفقه المالكي والعقيدة الأشعرية يمثل أهم معالم الممارسة الصوفية في تاريخ المغرب، وهو ما عبر عنه أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت. 297هـ/909م) الذي يعود إليه السند الصوفي ويشكل مرحلة هامة في تاريخه، بقوله: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن طريقنا مقيدة بالكتاب والسنة"[1]. ومن ثم بات من الطبيعي أن يلتزم المتصوفة الاعتدالَ في خطابهم الصوفي ولا ينحون منحى إشراقيا بعيدا عن قضايا المجتمع.

وقد تركزت جهود المتصوفة في هذا الصدد على ترسيخ مفاهيم التصوف السني، وتمتين الروابط العلمية بالمؤسسات الثقافية الأخرى، من خلال اعتناء الربط والزوايا بالتعليم والتربية، وجلب كبار العلماء والمتصوفة للتدريس[2].

وكان من نتائج تلك الوظائف الدينية أن لقيت بعض الكتب الصوفية ذات الطابع التعليمي رواجا في المدن والبوادي المغربية، كـ"حزب الشاذلي الكبير" لأبي الحسن علي الشاذلي (ت. 656هـ/1258م) و"دلائل الخيرات" للجزولي (ت. 870هـ/1465م) و"المرشد المعيد" لابن عاشر (ت. 765هـ/1363م) وغيرها، والتي تحولت إلى مناهج معرفية فكرية لتلقين الزوايا المغربية للتصوف السني لمريديها لشرح أسس التصوف السني ومميزاته؛ ففي إحدى الزوايا بفاس كان المريدون يُصَلُّون العشاء جماعة استعدادا لإقامة الليل بها وترديد بعض الأوراد[3].

ويعود الأصل في نجاح الربط والزوايا في تلك المهمة الدينية إلى التكوين العلمي للأولياء؛ لأن المعتاد في تاريخ التصوف بالمغرب "أن الولي لا يكون إلا عالما ولا يكون جاهلا"[4].

وقد تداخلت الجهود الفردية التي اطلع بها بعض الأولياء في سبيل نشر العلم والإسلام المعتدل والتصوف السني مع الأدوار المؤسساتية التي قامت بها الطوائف والربط والزوايا، منها طائفة الأمغاريين التي كانت تستفيد سنويا من هبات الدولة، ليستعين بها شيوخها ومريدوها على "ما هم بسببه من الفراغ للعلم والدين واتباع سلفهم الصالح آل رسول رب العالمين"[5].

وقد اتبع المتصوفة كل السبل المفيدة في نشر الإسلام والخطاب والسلوك الصوفيين وإصلاح المجتمع، فمنهم من نهج أسلوب التذكير والوعظ والنصيحة، ومنهم مَن جلب الطلبة إلى زاويته عن طريق تخصيص

---

[1]- الساحلي، بغية السالك، ج2، ص 560.

[2]- أحمد بوكاري، الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب (1204- 1330هـ/1790- 1912م)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ط1، 1427هـ/2006م، ج1، ص 19.

[3]- ابن الزيات، التشوف، ص 172.

[4]- أبو عبد الله محمد بن عيشون، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهرة النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص 209.

[5]- ابن عبد العظيم الأزموري، بهجة الناظرين وأنس العارفين (تاريخ بني أمغار)، مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، رقم: 1349د، ورقة 7أ- 8أ.

منح دراسية لهم، وهو ما حوّل الرباطات والزوايا، إضافة إلى الكتاتيب والمساجد والمدارس، إلى مراكز تعليمية مستقطبة للطلبة والمريدين[1].

ولم تقتصر هذه الوظائف الدينية والتعليمية على المغرب، بل سعى المتصوفة إلى نشر ذلك ببلدان المشرق الإسلامي كمصر والحجاز[2]، وبالسودان الغربي الذي كان يشمل المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى على حوض النيجر ونهر السينغال[3]، حيث قامت المسالك التجارية الصحراوية بدور طلائعي في تسهيل نشر التدين السني؛ لأن الإسلام بإفريقيا أدخله التجار والمسافرون الذين كان ضمنهم العلماء والأولياء منذ الفتح الإسلامي، وترسخ زمن الأدارسة في القرن 3هـ/9م[4].

وتبرز في هذا الإطار أهمية رباط عبد الله بن ياسين، أحد مؤسسي الدولة المرابطية، الذي تمكَّن من نشر الإسلام السني بين القبائل الصنهاجية بالصحراء؛ إذ أقام رابطة عند مصب نهر السينغال[5]، لتكون دولة المرابطين أوّلَ دولةِ رباطٍ في العالم الإسلامي، وميزتها أنها جمعت بين الحرص على التشريع المالكي لفقهائها، وعمق التصوف السني لزهادها، والطموح السياسي والعسكري لأمرائها[6].

ومن تجليات سيادة التصوف بالسودان انتشار الطريقة القادرية، نسبة لعبد القادر الجيلاني (ت. 561هـ/1166م)، التي دخلت إفريقيا جنوب الصحراء عبر المغرب[7].

ولترسيخ التدين السني في المجتمع المغربي، عمل الأولياء على تنظيم المواسم الدينية؛ فكانت ليلة النصف من شعبان وليلة القدر وعاشوراء من بين المناسبات التي اعتاد بعض المتصوفة الاحتفال بها[8]. وكان "رباط شاكر" قرب آسفي من أهم الربط المعروفة بمثل تلك العوائد الاحتفالية، باعتباره أحد "مزارات المغرب المشهورة، وكان مجمعا للصالحين من قديم الزمان"[9]. إلا أن أهم المواسم التي أحياها المتصوفة هو ما كان

---

[1]- ابن الزيات، التشوف، ص 428. محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/1977م، ص 8، 13، 66. سعيد بنحمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، شمس برينت، سلا، ط2، 2019م، صص 29- 50.

[2]- أحمد بن محمد بن أبي العافية بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص 467. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 17، 29، 30.

[3]- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1857م، ص 172، 183. محمد بن عثمان بلو فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس بالرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م، ص 47.

[4]- ابن الزيات، التشوف، ص 432. محمد بلو، إنفاق الميسور، ص 57. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1997م، صص 59- 74.

[5]- البكري، المغرب، صص 164- 172.

[6]- مؤنس، مقدمة تحقيق رياض النفوس، ج1، ص 26. عمر بنميرة، الثقافة والفقه والمجتمع: نماذج من المغرب الوسيط، جذور للنشر، الرباط، ط1، 2006م، ص 33.

[7]- بوكاري، الإحياء والتجديد، ج2، صص 116- 120.

[8]- البادسي، المقصد الشريف، ص 92.

[9]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج8، ص 55.

يقام في ذكرى المولد النبوي الشريف، إسهاما من الأولياء في تقوية التدين الشعبي لدى المغاربة، وبإيعاز من السلاطين الذين أقاموا، هم كذلك، الاحتفالات الرسمية بالمناسبة، وإحضار المتصوفة[1].

3- الأدوار الأمنية: اختلت الطرق، سواء البرية أو البحرية، التي كانت تمر منها القوافل والسفن في رحلتها إلى المشرق الإسلامي إما لطلب العلم أو التجارة أو الحج، بسبب انشار ظاهرة اللصوصية (غزو القبائل الهلالية منذ القرن 5هـ/11م) وسيطرة النورمانديين على البحر الأبيض المتوسط (البحر الرومي).

دفع هذا الوضعُ بعضَ الفقهاء إلى الإفتاء بإسقاط فريضة الحج على المغاربة، وساندهم في ذلك بعض الرحالة الذين عانوا من المضايقات في الطريق، مثل ابن جبير (ت. 614هـ/1217م)، الذي طالما اشتكى من تعسفات رجال الجمارك بميناء الإسكندرية ومنطقة الصعيد بمصر على ضفاف نهر النيل[2].

وإذا كان بعض المتصوفة قد عارض الفتوى الفقهية المسقطة للحج مؤقتا، ودعا إلى ضرورة تحمّل المشاق والمخاطر لتأديته، كما هو الحال بالنسبة لابن عبّاد الرندي (ت. 792هـ/1390م)[3]؛ فإن البعض الآخر تعبأ للقيام بمبادرات عملية لتأمين الحج؛ ومن ذلك الجهود التي اضطلع بها أبو محمد صالح الماجري (ت. 631هـ/1233م) مؤسس "ركب الحاج الصالحي" إلى بلاد الحجاز؛ فقد "أجمع فضلاء المغرب خصوصا وعموما على أن الشيخ رحمه الله هو الذي فتح الله تعالى طرق الحج من المغرب على يديه حتى حج كل عاجز وقادر عليه"[4].

انطلق ركب الحاج المذكور من آسفي، حيث عين أبو محمد صالح على طول الطريق الرابط بين عبدة والحجاز عددا من مريديه للتكفل بتدبير حاجيات الحجاج، ومنهم ابنه عبد العزيز، وحفيده إبراهيم بن أحمد وابنه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بالإسكندرية؛ فكانوا يأخذون بيد الضعفاء ويُعِينونهم على سلوك الطريق[5]، والتنسيق بين "المقدمين" الذين نصبوا في تلك المراكز، مثل المقدم الحاج أبي عبد الله محمد بن

---

[1]- علي بن محمد بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة الوراقة، الرباط، 1972م، ص 383. أبو عبد الله محمد الخطيب بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 152. أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1992م، ص 383، 384، 492، 493، 494.

Mohamed Cherif, Contribution à l'histoire de Ceuta (Sabta) aux époques Almohade et Mérinide, (Thèse de Doctorat 3e cycle), Université Toulouse Le Mirail, U.E.R d'Histoire et d'Archéologie, 1987, (Dactylographiée), p 269, 270.

[2]- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، س2، ص 1021، 1027. أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار)، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص 38، 39، 47. الونشريسي، المعيار، ج1، ص 432، 433.

[3]- ابن عباد الرندي، الرسائل الصغرى، تحقيق بولس ع. نويّا اليسوعي، مجلة المشرق، السنة الواحدة والخمسون، كانون الثاني- شباط 1957م، ص 46، 47.

[4]- أحمد بن إبراهيم الماجري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق عبد السلام السعيدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 1434هـ/2013م، ج2، ص 627.

[5]- الماجري، المنهاج الواضح، ج2، ص 617، 627.

عيسى، وأبي القاسم بن عبد الله الماجري بتلمسان[1]، و"زاوية بجاية" التي أشرف عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الملك بن موسى بن أبي الجيوش[2]، و"زاوية الحُجّاج" التي كلف بها أحد أحفاد أبي محمد صالح[3]، و"رباط الإسكندرية" الذي سهر فيه إبراهيم بن أحمد وابنه أحمد الماجريان على مصالح الحجاج المغاربة هناك[4].

ومما يؤكد كثافة الشبكة التي أقامها أبو محمد صالح، في إطار الركب الصالحي، أن عدد الزوايا الموزعة بين آسفي وبلاد الحجاز للغرض المذكور بلغت ستا وأربعين زاوية[5].

وبذلك اتسع المجال الحيوي للولي المذكور الذي قام بوظائف غير مباشرة لتأمين الحج؛ فقد شكلت سمعته ببلاد المغرب سلطة رمزية مكّنت الحجاج من حماية بوابي المدن، كما هو الحال بالمهدية بإفريقية (المغرب الأدنى أو تونس حاليا)، الذين بمجرد معرفتهم بانتماء أحد الحجاج إلى طريقة الولي حتى ساعدوه على التخلص من قُطَّاعِ الطرق بتوجيهه إلى الطريق الآمِن حيث كانت إحدى القوافل الحجية متوجهة إلى بلاد الحجاز[6]. بل إن أبا محمد صالح استطاع بفضل ارتباط بعض كراماته بالحج أن ينجو من إحدى غارات النصارى الذين همّوا بأسره في مَرْكب، وعوض أن يأسروه أَسِرَهم هو[7].

والخلاصة أننا نتبين المكانة الجوهرية للتصوف الجنيدي في المشهد التاريخي للمغرب، لكونه شكل إحدى آليات السلطة التي أطرت المجتمع والحُكْم والثقافة، والمتكونة من السلطة الزمنية (السلاطين)، والسلطة الدينية والروحية (العلماء والمتصوفة)، وهو ما جعل للأولياء وظائف وأدوار تَدَيُّنية واجتماعية وسياسية أثرت في مجالهم الحيوي، ولعل أهمها نشر الإسلام الوسطي والتصوف السني، وما أفرزه ذلك من الإسهام في بناء الشخصية الحضارية للمغرب.

---

[1]- محمد المنوني، "معطيات مدرسة أبي محمد صالح نموذج تأسيس ركب الحاج المغربي"، مجلة دعوة الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، العدد 271، 1409هـ/1988م، ص 110. السعيد لمليح، التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1425هـ/2005م، ص 68.

[2]- الماجري، المنهاج الواضح، ج1، ص 302 .

[3]- المنوني، "معطيات مدرسة"، ص 110، 111.

[4]- الماجري، المنهاج الواضح، ج1، ص 332، 333.

[5]- خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ط14، 1999م، ج3، ص 199.

[6]- الماجري، المنهاج الواضح، ج2، ص 619.

[7]- الماجري، المنهاج الواضح، ج2، ص 627.